عنوان الكتاب: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي

المؤلف: **الدكتور التيجاني عبد القادر حامد**

الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار البشير (الأردن) ـ الطبعة الأولى ١٤١٦/١٩٩٥ (٢٩١ صفحة).

مراجعة: **إبراهيم محمد زين***

هذا الكتاب لي معه قصة ربما ليس من المناسب ذكرها في هذه المراجعة، ولكن يبدو أن طرفا منها سيعين القارئ على فهم بعض الملاحظات التي سأبديها بشأنه. كان ذلك في عام ١٩٨١، وكنا قد تخرجنا لتونا بقسم الفلسفة من كلية الآداب بجامعة الخرطوم، وتم تعييننا في قسم أنشئ حديثا للدراسات الإسلامية بالجامعة بعد نزاع شديد في مؤسسات اتخاذ القرار بين الإسلاميين والعلمانيين، ثم طلب مني التخصص في مقارنة الأديان، وطلب من الأستاذ التيجاني التخصص في الفكر السياسي الإسلامي. وبسبب قلة المكاتب - وعدم وجود مبان للقسم أصلا - منحنا قسم الفلسفة مكتبا واحدا، فصرنا نجلس فيه متقابلين.

وكان التيجاني حينما يفكر بصوت عال يتحول تفكيره إلى نقاش أجره فيه إلى موضوع رسالتي التي كانت عن "فلسفة العقاب في القرآن مع اشارة خاصة إلى أسفار موسى الخمسة"، ويفلح هو أحيانا فيجرني إلى مواضع اهتمامه.

والأهم من كل ذلك أنني ـ وبسبب المصالحة الوطنية مع نظام الرئيس السابق جعفر نميري في ١٩٧٧ـ كنت قد جمدت نشاطي السياسي في تنظيم الإخوان المسلمين، أو قل الحركة الإسلامية. وكانت حجتنا الأساسية ـ أنا ونفر

* دكتوراه في مقارنة الأديان من جامعة تمبل الأمريكية، أستاذ مساعد بقسم معارف الوحي، الجامعة الإسلامية العالمية ـ ماليزيا.

آخرون معي - تتمثل في عدم مشروعية الدخول في نظام سياسي لا يقرُّ بمبدأ الحاكمية. وربما كنا أكثر مثالية وأقل وعيا بخوض غمار السياسة ومجالدة السلطة، ولكننا كنا - على أي حال - نمتلك وضوحا نظريا وإرادة تكفي لتحقيق ما نسعى إليه.

وكان الأخ التيجاني يشاركنا ذلك الوضوح النظري، لكنه آثر أن يخوض غمار تجربة المصالحة الوطنية محققا ذلك المعنى الذي تكرر في كتابه ألا وهو: الإمساك بالأرض والتطلع إلى المثال من خلال توحيد لا يفصل بين الأرض والسماء، ولكنه يحقق توترا فعالا هو جُمَاعُ الكسب الديني التوحيدي. وعلى الرغم من أن هذه واحدة من أطروحات الدكتور حسن الترابي الأساسية في تفسير حركته وكسبه الديني، إلا أن الأخ التيجاني عبد القادر قد حاول أن يحولها إلى مشروع فلسفي ناضج يعبر عن قيم التوحيد في سياق المصالحة الوطنية التي نُظِر إليها - في أوساط الإسلاميين عموما في السودان وخارجه - على أنها انحراف عن المنهج الحركي السليم، وتسليم مشين للعلمانيين.

تلك كانت هي الأجواء، ولم يكن أيٌّ منا يحلم بأن نظام الرئيس السابق جعفر نميري سيرفع أي شعار إسلامي بصورة فجائية وبنوع من الشمول مثلما حدث في عام ١٩٨٣م، مهما يكن الاختلاف في تفسير تجربة نميري الإسلامية. وكأن الأخ التيجاني أراد أن يترك مرحلة المدينة، لأن بحثها لم يكن يفيد كثيرا في فهم ما تطرحه الحركة الإسلامية بالسودان في ذلك الوقت، لذلك رأى في الفترة المكية من الدعوة وضعا مشابها لوضع الحركة الإسلامية في السودان. وممّا لا شك فيه أن الأخ التيجاني لم يرد هذه القسمة أن تصير محورا تُبَعَّضُ فيه الدعوة، وإنما هو يسعى في مجمل أطروحته لفهم ذلك كله من منطلق توحيدي لا فصل فيه بين المرحلتين المكية والمدنية، لتصير فيه الهجرة واحدة من معالم حركة الرسول ﷺ في تبليغ الدعوة وتمكينها، لانقطة تحول أساسي ونوعي في مسارها كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين. فالرسول ﷺ كان رجل دولة ودعوة في مكة كما كان كذلك فيما بعد في المدينة.

لعل هذه المقدمة تفيد كثيرا في وضع أطروحة الأخ الدكتور التيجاني في إطارها التاريخي من تطور العمل الإسلامي في السودان. ولا أدعي أنها المفتاح

لقراءة نص الكتاب الذي نستعرضه هنا، وإنما يمكن فقط الاستئناس بها لفهم مرحلة مهمة في تاريخ الحركة الإسلامية بالسودان، وكيف كانت قيادتها تفكر وتعمل لتحويل مواقفها السياسية اليومية إلى مادة للنظر العقدي.

ينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب أساسية، وكل باب يتفرع إلى جملة مباحث يراد منها جميعا أن تصب في بيان معنى أصول الفكر السياسي في القرآن المكي. ويتلخص الأمر في أن الرسول الكريم ﷺ لم يكن بدعا من الرسل، وإنما هو امتداد لظاهرة النبوة، وختام لمنهج الرسالة. وهذا الأمر اقتضى أن تكون منهجيته آخذة في الحسبان ذلك التراكم المنهجي الذي خلفته ظاهرة النبوة من قبله، تلك التي انتقلت من منهج استئصال لشأفة المكذبين - كما هو الحال مع قوم نوح وعاد وثمود - إلى منهج المغالبة على الأرض، والسعي للأخذ بأسباب التمكين، لا الانسحاب والهجرة. وبهذا المعنى فإن المرحلة المكية لم تكن مرحلة مبادئ عامة انتظرت التنزيل على أرض الواقع في المرحلة المدنية، بل إن دراسة الدكتور التيجاني تشير إلى أن منهج التدين الذي تبرزه السيرة النبوية هو "منهج سعي لا منهج انتظار".

وعلى ذلك فإن الفعل والمبدأ السياسيين كليهما قد استكملا معناهما في مكة، ولم تكن الهجرة كما يقول الكاتب "هدفا استراتيجيا ... وإنما كانت إجراء في طريق السعي لاستكمال الدين والنصرة السياسية". وبهذه الصورة فإن مغزى التوحيد الذي تظهره السيرة النبوية المطهرة في مقام الفعل السياسي إنما هو السعي في الأرض، مستصحبا مفهوم المداولة والاستخلاف، لإنجاز معنى الامساك بالأرض، والتطلع إلى المثال لتحقيق معنى أن السيادة العليا لله تعالى وحده. ذلك هو التوحيد الذي سعى الرسول الكريم لبيانه عمليا في المرحلة المكية، ذلك الذي تأسس على غراره الفعل السياسي في المرحلتين المكية والمدنية على السواء.

هذا الفهم يسعى لتصحيح الخطأ الذي يقع فيه بعض قادة العمل الإسلامي حينما يجعلون من المرحلة المكية مرحلة مبادئ وقيم انتظرت التطبيق في المرحلة المدنية؛ أو ذلك التخليط الذي وقع فيه بعض غلاة المتصوفة في الذهاب إلى أن أصول الدين التي تنزلت في المرحلة المكية أرجئت بسبب تخلف الوعي

الإنساني، وطبق طرف منها يتلاءم مع ما كانت عليه الإنسانية حال تنزل الوحي، ورفعت تلك الأصول وسادت فروع الأحكام التي طبقت في دولة المدينة. وقد جاءت انطلاقا من مثل هذا الفهم دعوة محمود محمد طه (في السودان) مثلا إلى بعث تلك الأصول في الرسالة الثانية بدعوى أنها تبعث رسالة السماحة والأصول التي لم يستطع الرسول تطبيقها في المرحلة المدنية.

ويأتي عمل الدكتور التيجاني كذلك رداً على دعاوى المستشرقين التي تدعي أن فهم الظاهرة الدينية تطورت لملاءمة الأوضاع التي نشأت فيها. فالرسول ﷺ في المرحلة المكية كان صاحب دعوة انتقل بسبب تغير الشروط إلى رجل دولة وحاكم في المرحلة المدنية، وكل ذلك قد حدث لتطور خارجي أثر في العقيدة. وهذا المنحي التطوري في الفهم يعزل الظاهرة الدينية عن مصدرها العلوي، ويعالجها في مستوى الصراع الاجتماعي أو النفسي، دون التسليم بمعنى القداسة الذي تحمله.

لذلك جاءت محاولة الدكتور التيجاني لبيان مواضع الخلل في كل من الاتجاهات السابقة في فهم المنهج النبوي، وذلك بتحليل السيرة النبوية في العهد المكي، وتحليل الآيات والسور التي تزلت فيه، وربط ذلك كله بالسياسة الدولية السائدة في عهد التنزيل؛ ثم مقارنة المعاني والأصول السياسية التي جاء بها القرآن الكريم، ببقايا الإبراهيمية في التراث العبراني اليهودي أو النصراني؛ ثم محاولة فهم الجذور الدينية للعلمانية، وربطها بتشكلات ذلك الميراث الديني اليهودي المسيحي؛ ثم أخيرا بيان معنى السيادة العليا كما عرضها القرآن الكريم في ميراث النبوات السابقة، وكيف أن هذا المعنى قد اختل في الفهم اليوناني الوثني و اليهودي المسيحي و العلماني، وما هي المقاربات والتطورات التي أنتجت كلاً من هذه الأفهام، وما هو الأثر المتبادل بينها، وكيف أن القرآن الكريم وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام قد بين كل منهما معاني الاستخلاف والمداولة في إطار السيادة العليا لله وحده، وفق رؤية توحيدية تربط الدنيا بالآخرة، وتوجد علاقة متبادلة بين المثال والواقع، يكون نتاجها ذلك الكسب الديني الذي يتعدد ويتنوع في إطار الزمان والمكان، دون أن يؤثر

ذلك في قيم الدين العليا الثابتة، التي هي في جوهرها بيان لمعنى السيادة العليا، وإجابة كلية عن الأسئلة المطلقة.

سعى المؤلف في الباب الأول إلى توضيح ثلاثة معان في مقدمات ثلاث هي مفاتيح أولية لفهم الإطار النظري الذي يتحرك فيه البحث. وقدكانت المقدمة الأولى عن معنى الفكر السياسي، وبعد أن ذكر المؤلف له تعريفين خلص إلى أن مجال الفكر السياسي يختص بمعالجة قضايا السلطة. ولما كان البحث يسعى لمعالجة تلك القضايا في أصولها لا في فروع مسائلها، فقد جاءت المقدمة الثانية لتحديد معنى الأصول؛ ثم كانت المقدمة الأخيرة عن معنى القرآن المكي، وتبرير اتخاذ القرآن المكي مجالا لبحث أصول الفكر السياسي في الإسلام.

وبعد هذه المقدمات الثلاث، جاء المؤلف بجملة من القضايا هي في الأصل متابعة لأفكار المقدمات على الرغم من أنه لم يصرح بذلك؛ لكن الناظر فيها يرى أنها من باب تلك الممهدات التي ترمي إلى إيضاح الأطروحة الأساسية في البحث، حيث إنه بيَّن معنى المفهوم الكلي للوجود في إطار الرؤية الإسلامية وانتقل بعد ذلك إلى بيان أثر المثالية الأفلاطونية في الفكر السياسي بدءاً من أرسطو، ومرورا بطائفة من مدارس الفكر الغربي، وانتهاء بالفلسفة الحديثة، وذلك كله لبيان الجذور الفلسفية للجدل السياسي الراهن في الفكر الغربي. ثم انتقل إلى بيان مذهب التوحيد الإسلامي وأثره في الفكر السياسي في مقاربة ومداخلة بينه وبين المقولات الأفلاطونية، ثم بيان الفارق الأساسي بين وجهتي النظر الإسلامية والأفلاطونية في أصول الظاهرة السياسية، وموقع الغيب في كل من المنظومتين.

وقد دخل المؤلف في مغالطة مطولة عندما تناول منهج التغيير الاجتماعي لدى سيد قطب من منظور فلسفته السياسية، التي بدا للأخ التيجاني أنها تشبه مناهج "الاستئصال الراديكالي"، وحاول أن يقدم فهماً لمنهج سيد قطب بقراءته لفصل "جيل قرآني فريد" من كتابه **معالم في الطريق**. وعلى الرغم من المغالطة الواضحة في محاولة الأخ التيجاني بيان موقف سيد قطب، وتحويله إلى تبسيط مخل في فهم المنهج النبوي، بقراءة مبتسرة لكتابه **معالم في الطريق**، إلا أن الأخ

التيجاني قد أفلح في انتقاد تلك الاتجاهات التبسيطية المخلة في فهم فكر سيد قطب.

نقول ذلك ونحن نعي تماما أن محاولة قراءة مفكر مثل سيد قطب من خلال فصل واحد دون ربطه بنسيج فكره العميق والمتداخل تعتبر قراءة متحاملة، أو في أحسن الأحوال لا تؤدي إلى فهم سليم لأفكار سيد قطب. ذلك أن القضايا ذاتها التي توصل إليها الأخ التيجاني نجدها مبثوثة في **معالم في الطريق وهذا الدين والمستقبل لهذا الدين**، أو من خلال قراءة كلية لكتابه **في ظلال القرآن**.

أما الباب الثاني فيفتتحه المؤلف ببيان المنهج الذي سيتخذه لفهم أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، واصفاً إياه بأنه مجرد تدبير فني قصد به ترتيب مادة البحث بالصورة التي رآها المؤلف وافية بالغرض، أي أن المنهج المتخذ إنما هو خيار من جملة خيارات أخرى لاينبغي أن يثار حولها جدل، حيث إن الغاية هي محتوى المنهج ونتائجه، وليست الأداة التي اتخذت في ذاتها الوصول إلى ذلك المحتوى.

وقد اختار المؤلف سورة الأعراف من القرآن المكي، لأنها - في نظره - تشمل على جُمَاع قضايا الأصول السياسية؛ وهذا الاختيار لا يعني ترك ما سواها من السور المكية، وإنما يعني اتخاذها الأساس الذي يُبْنَى عليه، والعودة إلى بقية السور المكية لبيان أصل من الأصول أو لتعضيد مبدأ من المبادئ.

قسم المؤلف السورة ثلاثة أقسام: يُعنى القسم الأول منها بوضع الأساس التصوري عن الوضع الإنساني كما هو، وما ينبغي أن يتحقق فيه من علاقات بين الإنسان والكون من جهة، وبينها وبين الله سبحانه وتعالى من جهة أخرى، وفق مفهومين رئيسين هما: وحدة أصل الإنسانية، واستخلاف الإنسان في الأرض، على أساس أن الناس جميعا مأمورون باتباع الرسل، ليتحقق معنى التوحيد لمن له الخلق والأمر. ويعرض القسم الثاني نماذج من تجارب الرسل السابقين، وهذا القسم يستغرق ما يزيد على نصف السورة. ثم أخيرا القسم الثالث الذي فيه عودة إلى أهل مكة لبيان معاني تلك التجارب والعبر التي يمكن أن تتخذ منها.

وقد حاول المؤلف في قراءته للقسم الثاني من السورة بيان المعاني التوحيدية التي بَيَّنتْها السورة باستعراضها تجارب الرسل. وبقراءة متأنية للنصوص القرآنية، قام باستنباط الأصول السياسية التي جاءت بها تلك التجارب النبوية، ثم عقد مقارنة بينها وبين أطروحات الفكر الغربي حول أصل الإنسان، وأصل الاجتماع البشري، وكيفية تكوُّن السلطة والسيادة السياسية في المجتمعات الإنسانية، وذلك من خلال عرض قيِّم وتحليل دقيق للنصوص القرآنية، وفهم عميق لنصوص الفكر السياسي الغربي.

ثم رجع المؤلف مرة أخرى إلى قصة موسى عليه السلام، ليناقش من خلالها منهج سيد قطب في اعتزال الجاهلية، والتطهر من أدرانها، وذلك بالتجمع والتنظيم حتى يأتي وعد الله، وبذلك يكون الخروج من مصر هدفا استراتيجيا، بينما يرى الأخ التيجاني "أن البقاء في مصر الجاهلية - لا الخروج منها - كان هو الهدف الاستراتيجي الأكبر الذي من أجله بعث موسى ... وإنما كانت رسالته أن يبقى هو والإسرائيليون والأقباط في أرض مصر ليقيموا الدين فيها...". وعليه فإن الانسحاب والخروج من مصر لا يعضده منهج النبوة ولا تجارب الأنبياء السابقين، بل إنه لا محل له في المنطق الديني القائم على السعي والمغالبة لامتلاك شروط التمكين.

ويورد المؤلف بعد ذلك بعض الملاحظات المنهجية التي يمكن أن تتخذ معالم لمنهج السعي النبوي الموسوي، مبينا كيف أن هذه المنهجية ذاتها سيتخذها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في صراعه مع مشركي مكة، ويحاول تفصيل ذلك في دراسته للتجربة القرشية بعرض تاريخي متماسك، استخلص في نهايته من تجربة الرسول في مكة خصائص الدولة الإسلامية التي تتلخص في الآتي:

١- إنها دولة توحيدية تحريرية. ٢- إنها دولة للناس. ٣- إنها دولة قانون. ٤ - إنها دولة غير ثيوقراطية.

ولا شك أن المؤلف قد بذل جهدا محموداً في الإمساك بخيوط موضوع شائك كالذي تناوله في هذا الباب، وأفلح - على الرغم من صعوبة المادة التي عالجها - في بيان فكرته الأساسية. إلا أن نقده لسيد قطب - مرة أخرى - لم يخلُ من تمحل ومغالطة، جعلته يعيد قراءة المنهج الموسوي بصورة فيها كثير من الإغراب في فهم سيرة موسى عليه السلام كما عرضها القرآن الكريم، فقد كان الخروج هدفا استراتيجيا قصد منه فناء ذلك الجيل الذي ولد في ظل العبودية،

كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون وجملة من مؤرخي الإسلام في فهم معنى التيه الذي ضُرب على بني إسرائيل في سيناء.

ولعلَ الأوفق - في فهم الميراث الموسوي - ربطُه بكسب أنبياء بني إسرائيل من لدن يعقوب عليه السلام مرورا بيوسف عليه السلام، وانتهاء بموسى، مع التنبيه إلى أن تلك التجارب كانت بين مصر وأرض الميعاد توترا وتطلعا، جعل من الجهد النبوي الموسوي خطوة في إطار خطة كاملة، أدرك مغزاها الرسول الكريم وأصحابه، وصار للهجرة بالتالي معنى ديني هو أقرب للانحياز للصف المؤمن منه للانسحاب وترك الأرض يستكبر فيها أعداء الدين بغير الحق. ولكن لابد من الإشارة هنا إلى أن التحليل الذي قدمه الدكتور التيجاني فيه كثير من الملاحظات القيمة والسديدة، وإن لم نسلم له بالإطار الجامع الذي أورد فيه هذا التحليل.

أما الباب الثالث فقد درس فيه المؤلف تجربة النبي محمد ﷺ في مكة بكثير من الدقة والتفصيل، واصلا إياها بما توصل إليه نظره في تجارب الأنبياء السابقين كما عرضتها سورة الأعراف. وفي درسه للوضعية القرشية التي تدعي نسبتها إلى إبراهيم عليه السلام، بيّن أوجه الانهيار الداخلي الذي منيت به قريش إبان البعثة، وكيف أن الديانة الإبراهيمية قد تحولت إلى أصول عرقية قبلية تسْتغل في تثبيت قيم التجارة أكثر من كونها ديانة متصلة بأسباب السماء. فمكة بوصفها حاضرة دينية اختلطت فيها قيم الدين بقيم التجارة وصارت القيم التجارية هي الحاكمة في توجهات الملأ من أهل مكة.

وبعد استعراضه لتاريخ قريش ولمعنى الإيلاف، انتقل الباحث إلى بيان الفساد الذي أصاب التجربة الإسرائيلية وأمراض التدين التي لحقتها، وحاول من خلال المقارنة بين سورتي قريش والإسراء بيان الاختلاف بين الحالة الإسرائيلية والحالة القرشية. فالفساد الاجتماعي لقريش حدث في حالة غياب "الكتاب والدولة"، أما الفساد الذي اكتنف التجربة الإسرائيلية، كما عرضتها سورة الإسراء، فقد حدث بالرغم من وجود "الكتاب والدولة".

ويرى الدكتور التيجاني أن سورة الإسراء تبدأ من حيث انتهت سورة قريش في عرض أمراض التدين وأحواله. وقد كان للتجربة الإسرائيلية - كما يرى المؤلف - أثر بارز في تكوين وعي النبي ﷺ وتشكيل منهجه الحركي واتخاذ العبرة من التجربة الإسرائيلية.

ثم ينتقل المؤلف إلى بيان الفساد الدولي العام كما عرضته سورة الروم، التي تخص بالذكر العلاقات التاريخية الرومانية الفارسية، وكانت قد تعرضت لها من قبل سورة الإسراء عند الحديث عن التجربة الإسرائيلية، فبنو إسرائيل عانوا من آثار الصراع الفارسي الروماني وتداخلاته في المنطقة.

وعندما حاول المؤلف الإجابة عن سؤال: "لماذا يفرح المسلمون بانتصار الروم؟" نظر في العلاقات التجارية ومسار التجارة الدولية، وكيف أن الوجود الروماني في البحر الأحمر كان ضارًا بالحركة التجارية التي تديرها قريش، فكان من الطبيعي أن تتخذ قريش من فارسَ حليفا لها، في حين فرح المسلمون لأن انتصار الروم له دلالات، أهمها إمكانية انتصار الضعيفِ عُدَّةً على القوي، ولكونه مقدمة لانهيار القوى العظمى في ذلك الوقت، إذ إن تسلط الروم على الفرس كان يعني قرب نهاية الروم أنفسهم، لأن الصراع قد يفضي في نهاية الأمر إلى تحطيم كل من القوتين، وبالتالي تحين الفرصة للقوة الجديدة كي تأخذ زمام المبادرة على مسرح الأحداث.

ثم ينتقل المؤلف إلى دراسة الفساد الداخلي في الامبراطورية الفارسية من خلال استعراضٍ ما ذكره ابن خلدون عن تاريخ الإمبراطورية إبان البعثة المحمدية، مُتْبعاً ذلك بالتعرض للفساد الداخلي في الإمبراطورية الرومانية كما ذكره المؤرخ جيبون.

ويختم المؤلف نظره التاريخي في الوضع الدولي المعاصر لبعثة محمد ﷺ ببيان سعيه عليه السلام في مكة لإقامة الدولة الإسلامية، فيقرر ذلك من خلال جملة من النقاط على النحو الآتي:

١ ـ إن الرسول ﷺ كان يسعى لإسقاط "الشرعية الدستورية" عن حكومة الملأ من قريش.

٢ ـ إنه سعى لِضرب مصالح قريش الاقتصادية.

٣ ـ تطويق قريش من الخارج عن طريق الأحلاف والمعاهدات.

ويفصل الكاتب النقطة الثالثة بدراسة حركة الرسول الكريم من خلال رحلته إلى الطائف، ثم استجارته بقبيلة نوفل، ثم أخيرا مفاوضاته مع بني عامر، محاولاً فهم أبعاد المنهج النبوي الذي أفضى في نهاية الأمر إلى بيعة الخزرج لرسول الله ﷺ، فقد كانت قبل الهجرة، الصيغة التي اتخذتها تلك البيعة تلخص جملة المعاني الأساسية في سعي الرسول الكريم "من أجل قيم التوحيد

والقبض على الأرض مع النظر إلى السماء". ويلاحظ المؤلف أن الرسول ﷺ بعد هذه البيعة قد كفَّ عن عرض نفسه على القبائل لطلب النصرة، معللا ذلك على النحو الآتي: "فالنصرة قد جاءت وعناصر السيادة والتمكين قد اكتملت، ولم يبق شيء من قيام الدولة الإسلامية إلا أمور تتعلق بالإجراءات وتحديد المواقيت والأمكنة".

وبهذا النص القوي الواضح يختتم المؤلف الباب الثالث مبينا خلاصة السعي النبوي في بيان منهج الأصول السياسية، وهي مجموعة قيم ومبادئ متوثبة نحو المثال تجعل غاية الفعل السياسي الجنة وليس السلطة.

أما الباب الرابع فهو مداخلة بين الفكر السياسي الإسلامي والأيديولوجية العلمانية. وبالرغم من أن الصلة بين هذا الباب وبقية الأبواب ليست واضحة وضوحاً تاما، إلا أن المؤلف قد اجتهد اجتهادا كبيرا لبيان موقعه في هيكل الحجة الأساسية للبحث. وقد سوّغ ذلك بأنه قد تعرض في الأبواب السابقة بصورة مقتضبة لبعض الفلسفات الحديثة، وأنه قد آن الآوان لإجراء مقارنة بينها وبين المنظور القرآني. وقد توخى في تلك المقارنة اختيار بعض الفلاسفة نماذج لفهم أصول الفكر السياسي الغربي في ردهم للتراث اليهودي والمسيحي وتشكلاته المختلفة. وبدأ بالنظر في التجربة الدينية اليهودية وما آلت اليه من انحراف أساسي عن معنى التوحيد، ثم ربط ذلك بالإصلاح المسيحي، وما انتهى اليه في خاتمة المطاف من انحراف آخر عن معاني التوحيد، ثم أخيرا الانحراف الذي وقعت فيه الحركة البروتستانية في محاولاتها للإصلاح الداخلي، ثم التجربة الأيديولوجية العلمانية وفهمها بوصفها ردَّ فعل على اللاهوت المسيحي. وبعد هذه السياحة الطويلة في التراث اليهودي المسيحي وما أفضى اليه من رد فعل علماني، قام المؤلف باختيار نماذج للتدين الوضعي درسها بتفصيل، وتتمثل هذه النماذج في توماس هوبز وجون لوك وآدم سميث وكارل ماركس. وقد حاول المؤلف من خلال كل هذا العرض بيان الجذور الدينية الإشتراكية للفكر السياسي المغاير للفكر السياسي التوحيدي كما عرضه القرآن الكريم.

وتبقى لنا ـ بعد هذا العرض لأهم ماورد في **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي** ـ جملة ملاحظات نلخصها في الآتي:

أولا: على الرغم من خطورة الموضوع وأهمية الأطروحة التي تناولها الكتاب، إلا أن العرض والتنظيم لم يرتقيا إلى مستوى الموضوع وقدرة المؤلف المعهودة على التحليل واستخلاص النتائج. وللدلالة على ذلك فإن الباب الثالث عنوانه هو عنوان الكتاب نفسه. كما أن التبويب الداخلي لم يلتزم طريقة واحدة، بل تنوعت وتعددت طرق التبويب، حتى كأن الكتاب مجموعة مقالات لا صلة بينها، جمعت على صعيد واحد ليتألف منها هذا السفر الذي بين أيدينا.

ثانيا: لقد استخدم المؤلف عبارات مثل "الرأسمالية القرشية" و "الاستعمار الفارسي" و "إن قريشا قد وصلت حافة الاستعمار" و "الشرعية الدستورية" وغيرها للتعبير عن حالات وأوضاع تاريخية لا يستقيم منهجيا وفكريا أن تستخدم مثل هذه الاصطلاحات لفهمها وتحليلها.

ثالثا: هناك جملة من الأخطاء الطباعية، بل إن بعضها قد لحق الآيات القرآنية بصورة كان من الممكن تفاديها بمجرد النظر والمقارنة، كما ورد في الصفحة (٧٨) حيث ورد في القائمة (أ) البند٢: "وإلى عاد أخاهم هودا."، وفي البند٣: "وإلى عاد أخاهم صالحا..."، وغير ذلك من الأخطاء التي تدل على ضعف صناعة الكتاب، وهذا أمر غير مقبول خاصة إذا كان الناشر مؤسسة علمية رائدة مثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

رابعا: إن تجاهل المؤلف لسور الكهف ومريم وطه جعل فهمه وتحليله للظاهرة النبوية المحمدية والموسوية والعيسوية أقل عمقا وأدى به إلى كثير من المغالطات، ولربما كان تركه سورة طه لأنها تدحض اتجاهه في فهم التجربة الموسوية ومعنى الخروج من مصر.

خامسا: إن هذا الكتاب يعد فتحا جديدا في مجال الدراسات القرآنية، وتفصيلا وإكمالا لما بدأه الأستاذ مالك بن نبي رحمة الله عليه في **الظاهرة القرآنية**.

وأخيرا، إن هذه المراجعة لا تُغني عن قراءة هذا السفر القيم، وتدبر ما سلكه من نهج، بل نزعم أن فهم تجربة الحركة الإسلامية في السودان لا يتأتى إلا بفهم هذا السفر المتميز، الذي تداخلت فيه صرامة إبراهيم أحمد عمر المنطقية، وتعقيدات هموم المصالحة الوطنية، التي أفضت إلى نظر حركي جديد اقتضى أن يمحض له المؤلف هذا الجهد التنظيري العميق.